



نظرات في المسألة التربوية في فكر الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله



د. الطيب الوزاني

تقديم:

لعل مما يدعو إلى الاهتمام بالجانب التربوي عند الأستاذ المربي فريد الأنصاري رحمه الله تعالى أن الرجل كان رجل تربية بامتياز، وحتى النخاع - كما يقال - ولا يلهج إلا بالتربية، وجميع ما ألفه يصب في التربية: نظرا وعملا، تصورا وتطبيقا، علما ومنهجيا وطريقة ودليلا عمليا، درسا وتدریسا، خطبا ومواعظ، بل حتى إبداعه الأدبي من شعر وقصة ونقد، وكيف له أن لا يكون رجل تربية بامتياز وقد تشرب ذلك منذ صغره في بيته مع والديه اللذين سهرا كثيرا على تحفيظه القرآن الكريم وتعليمه الآداب والنظام؟! وكيف بمن تربى على يد الفحول في التربية القرآنية ابتداء من المدرسة النبوية مع الصحابة والتابعين مروراً بكبار العلماء الربانيين العاملين والمربين والمصلحين في القديم والحديث والمعاصر. كما سيرد بعد أن لا يكون داعية ومربيا ومصالحا اجتماعيا؟! أليس هو من يحي عن شيوخه قولهم الذي يتمثله كثيرا: من عاش الفحول تفحل؟!¹

ثم أليس من حق من ذاق لذة الجمال الكوني والقرآني وحلاوة الإيمان أن يكون مربيا وداعيا ومصالحا؟ ومن ذا الذي يمكن أن يكون مؤهلا لها من ليس في مثل أبي أيوب فريد الأنصاري رحمه الله تعالى علما وخالقا وذوقا وهما بصالح المجتمع؟ وإني بحكم متابعتي لما يسر الله متابعتي من إبداعاته منذ زمن غير يسير تبين لي - فيما أقدر وفيما أعتقد أن أحدا من المنصفين لن يسره إلا أن يوافقي - أن المسألة التربوية تحظى باهتمام واسع لدى الرجل الفريد إلى حد يمكن اعتبارها هي بؤرة تفكيره، وجوهر مشروعه الدعوي، ولب حياته التي وهبها لله ولخدمة دينه علما وتعلما، بياناً وتبييناً، فهما وتربية وتبليغا، ونصحا لله ولرسوله وللأئمة المسلمين (من الولاة والعلماء والدعاة والعاملين) ولعمامة المسلمين.

ولحالة الإشراف على بعض معالم مشروعه التربوي والدعوي كان تتبع مواطن حضور الهاجس التربوي لدى الرجل في كتاباته ذات الاتصال بالمسألة التربوية اتصالا قريبا أو بعيدا، أو اتصالا ظاهرا جليا أو باطنا خفيا، بقصد تلمس الخيط الناظم لكل كتاباته، فتبين أن حضور المسألة التربوية لديه يمكن تجليتها من خلال جانين: جانب البناء، وجانب الهدم؟ فكيف ذلك؟

أولا - الجانب البنائي:

يسعى هذا الجانب إلى إبراز الجهود التي بذلها الأستاذ فريد رحمه الله تعالى من أجل بناء تصوره في المسألة التربوية بدءا من التصريح بدواعي اهتمامه بذلك (مقدمات كتبه) إلى بحوثه في تأصيل المسألة التربوية وبيان أهميتها ومركزيتها في الإصلاح الديني والتجديد الديني والبعثة الحضارية المتجددة للأمة (كتاب التوحيد والوساطة، والمصطلح الأصولي، وأبجديات البحث، والفجور السياسي،

والبيان الدعوي، ومفهوم العالمية، وبلاغ الرسالة، بعثة التجديد المقبلة...)، إلى محاولاته في تنزيل مشروعه التربوي في دلائل وتوجيهات عملية ذات بعد تطبيقي وروحي (مجالس القرآن وبلاغ الرسالة، وفناديل الصلاة، وجمالية الدين...)، مع العلم بوجوب التصريح بصعوبة الفصل أحيانا داخل الكتاب الواحد بين الجانب العلمي النظري التصوري وبين الجانب العملي التطبيقي والتنزيلي، لتداخلهما وتكاملهما أبعادا ومقاصد وإجراءات.

■ **دواعي الاهتمام بالمسألة التربوية عند الأستاذ فريد:** يمكن تجلية بعض الدوافع التي أحت على الأستاذ فريد ودفعته للاهتمام بالتربية تنظيرا وممارسة بناء ونقدا فيما يلي:

- إن التربية هي الإطار الذي يتم داخله تشكيل القيادات والجنود... فهي صمام الأمان الذي يضبط المسيرة الدعوية داخل الصف (التوحيد والوساطة 1/33).
- نجاح العمل الدعوي في مختلف جوانبه مرتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بما يحققه من نجاح في المسألة التربوية تصورا وممارسة (نفسه 1/33).
- أغلب الخلافات والأفات في الأمة راجعة إلى آفات وتعترات تربوية بالأساس (نفسه 1/33) ولا حل لهذه الخلافات إذن إلا

كلمات القرآن وبلاغاته وفي سنة النبي ﷺ وسيرته التي هي التطبيق العملي والفعل والواقعي للوحي ويمكن تلمس هذا التأصيل الشرعي في كتاب "التوحيد والوساطة في التربية الدعوية" (1995) إذ بين أن التربية هي "تعهد الفرد المسلم بالتكوين المنتظم، بما يرقيه، في مراتب التدوين، تصورا وممارسة" (التوحيد والوساطة ج 1 ص 35)، وذلك بتوظيف كل ما يساعد على فهم الإسلام وحسن تنزيله تربويا في حياة الفرد والجماعة" (التوحيد والوساطة ج 1 ص 36) أو "كل ما يساعد على تمثيل الإسلام في الحياة البشرية روحيا وعلميا ونفسيا واجتماعيا" (التوحيد والوساطة ج 1 ص 37) ولما كانت التربية تربية إسلامية فلا بد أن تقوم على مصدرية شرعية تعتبر التوحيد قطب رحاها وتقوم في مادتها التربوية على النصوص الشرعية: نصوص الكتاب والسنة (التوحيد والوساطة ج 1 ص 44) والتطبيق العملي لهذه التربية ليس له من وجود إلا في سنة النبي ﷺ لأن الرسول إنما كان مربيا هذه الأمة ببلغ رسالة الإسلام التربوية (التوحيد والوساطة ج 1 ص 55) فالمدسة النبوية نموذج التربية التوحيدية القرآنية التي كانت تتميز بخصائص متميزة منها اعتمادها في

كان رجل تربية بامتياز، وحتى النخاع - كما يقال - ولا يلهج إلا بالتربية.

وجميع ما ألفه يصب في التربية: نظرا وعملا، تصورا وتطبيقا، علما ومنهجيا وطريقة ودليلا

عمليا، درسا وتدریسا، خطبا ومواعظ، بل حتى إبداعه الأدبي من شعر وقصة

من خلال قنوات التربية الصحيحة.

- عملية إحياء الدين لا تتم إلا بإحياء نموذج التربية القرآنية التي مارسها الأنبياء الذين كانت مهمتهم ووظيفتهم التربية القائمة على العلم والتعليم (مفهوم العالمية ص 4).

- أهداف الفجور السياسي تتركز في هدف واحد هو تدمير الفطرة والقضاء على الدين الفطري في الأمة ولا سبيل إلى تحقيق التدافع في هذا الجانب إلا بتجديد الذات المسلمة وذلك بالرجوع إلى الفطرة دينا ودعوة لأن الفطرة المسلوقة أو المخرومة لن تعالج إلا بمنهاج فطري كما هو معروض في القرآن الكريم والسنة النبوية من غير وساطات (الفطرية ص 5 إلى 8 بتصرف)

هذه الدواعي وغيرها هي التي ألهمت الغيرة في صاحبنا وأيقظت فيه هم البذل والاجتهاد في إسداء النصح للأمة وللعاملين في حقل التربية والدعوة عن علم وبحكمة وبإخلاص، نسأل الله أن يتقبل منه ويبارك له الأجر، وينفع به الأمة.

■ **أصول الاستعداد:** ويقصد بها أن فريدا رحمه الله تعالى في مشروعه التربوي والدعوي كان حريصا على تأصيل عمله وبيان أصول الاستعداد التي استمد منها معالم هذا المشروع، وهي على نوعين:

الأول: التجربة النبوية المعصومة كما يعرضها الوحي قرآنا وسنة وسيرة: هنا عمل الأستاذ فريد رحمه الله تعالى منذ فترة مبكرة من مساره العلمي والدعوي على تأصيل المسألة التربوية والبحث عن أصولها الشرعية كما هي مبثوثة في

إلى هذه التجارب التربوية والإصلاحية والتجديدية يستلهم منها معالم الرشد والتجديد ويبرز من خلالها استمرار الدين وعوامله لأن إحياء الأمة وتجديد الدين بعد النبوة موكول للعلماء الربانيين لذلك تجده واعيا بهذا الأمر عندما يقول: "منهج بناء الأمة كما كان على يد رسول الله ﷺ، يكون على يد ورثته من الدعاة المجددين والعلماء المصلحين" (البيان الدعوي ص 5) وقد كانت قراءته للتاريخ قراءة تربوية واعية وقاصدة تستهدف الكشف عن مواطن الرشد فيها مثل قراءته لوصية الباجي لولديه والتي كانت ملهمة لكتابة كتاب "مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية" لاقتراح ما يلزم لعصرنا من فلسفة التربية وبرامجها ومقرراتها وأهدافها وقد كان الأنصاري رحمه ينظر بإعجاب كبير للباجي لأنه "عالم عظيم ذو باع طويل وتجربة عميقة في مجال طلب العلم وتعليمه، والاشتغال به؛ تربية وتزكية ونشرا وتجديدا في ظروف شتى من العسر واليسر والخوف والأمن والسفر والحضر" (مفهوم العالمية/ ص 14) وبنفس المنهج قرأ تراث الشاطبي الأصولي والمقاصدي، ولاح له أن الشاطبي لم يكن مجددا في المصطلح الأصولي والمقاصدي إلا لأنه مجدد ومصالح ورجل تربية لذلك عقد في أطروحة فصلا لطيفا وهو المتعلق ب"إصلاحية التجديد المصطلحي عند الشاطبي" بين فيه أن المقصد من التجديد المصطلحي عند الشاطبي هو مقصد إصلاح تربوي، وأن اهتمام الشاطبي بعلم الأصول لم يكن اهتماما بالعلم لذاته دون العمل ولا بالنظر دون التطبيق ولا بالمفهوم دون التربية والتخلق، ألم يقل فريد في حق الشاطبي: "إن القصد التربوي الإصلاحية كان حاضرا عند كل لمسة تجديدية للشاطبي في المصطلح الأصولي بل لقد كان كتاب المقاصد كله في الإصلاح التربوي امتدت فروعها إلى سائر الأبواب الأصولية الأخرى؛ لأن فكر أبي إسحاق الشاطبي إنما بني على ذلك الأساس (التربوي والإصلاحية)" (المصطلح الأصولي/ ص 112) ولذلك فإذا كان "المصطلح هو العلم" (المصطلح الأصولي عند الشاطبي، ص 11) وكان العلم هو "التربية والأخلاق" (مفهوم العالمية، ص 7) والربانية والإصلاح والتجديد فإن المصطلح هو التربية والأخلاق أو التعبد والامتثال (المصطلح الأصولي/ ص 15) ومن ثم كان الاهتمام بالمصطلح اهتماما بالعمق التربوي ويصلب القضايا التربوية ومنطلقاتها الحقيقية إذ لا تربية ولا تجديد ولا إصلاح إلا بإصلاح المفاهيم والتصورات تصحيحا ينطلق من المنهج القرآني في تناول المصطلحات والمفاهيم وقضاياها والتربية بها وعليها.

وعموما فإن أبا أيوب الأنصاري رحمه الله تعالى كان يقرأ التاريخ بوعي ديني وحس تربوي وهم دعوي إصلاحية تجديدية يتلمسه في نصوص الوحي والسنة السيرة وفي التجارب الإحيائية للعلماء الربانيين والدعاة والمجددين المخلصين وسيرهم "من أمثال الحسن البصري.. وعبد الله بن المبارك، والفضيل بن عياض، وسعيد بن جبير، وشعبة بن الحجاج، وفقهاء المدينة السبعة.. هؤلاء الذين شكلوا مرجع الفقه المالكي، وأساس (عمل أهل المدينة)، لدى الإمام مالك، وكذا الإمام الزهري، وربيعه الرأي، ويحيى بن